



د. توري طه

باحث في القضايا الأفريقي. مدير العلاقات الدولية بجمعية التوعية الإسلامية بساحل العاج، وعضو تأسيس المعهد العالي للعلوم الإنسانية والتقنية.



الاختراق الثقافي:

سياسات التغلغل الإيراني في دول غرب أفريقيا

بعد نجاح الثورة الإيرانية سنة 1979م، وفي مقابل ما عاشته إيران منذ قيام تلك الثورة من ضغوط دولية، وعزلة بعد الحصار الاقتصادي الذي وقع عليها، نتيجة طموحاتها النووية، توجهت إيران إلى التوسع في القارة الأفريقية، لإشباع حاجتها من المواد الخام التي تزخر بها القارة، خاصة منطقة غرب أفريقيا، وفتح أسواق جديدة واعدة للصادرات الإيرانية، مستخدمة في ذلك الستار المذهبي الذي يتخذ الاقتصاد والسياسة والدبلوماسية ذريعة ووسيلة، ولتحقيق هذا الهدف، اتبعت إيران استراتيجية دمج السياسة بالدين.

العالم، إذ تكفل لها مقتضيات السيادة الحق القانوني في بناء العلاقات الثنائية مع دول غرب أفريقيا، مادام ذلك في إطار النظم السياسية الدولية القائمة على احترام السيادة والخصوصيات. لكن في المقابل، لا يخول هذا الحق لإيران أن تروج لثقافتها بأبعادها العقائدية، خاصة حين تتضمن حقائق تلك العقيدة تهديداً صريحاً لتماسك نسيج المجتمعات، كحال غرب أفريقيا بمجتمعاتها المسلمة السنية.

إن النسق العقيدي لقادة نظام الثورة من الساسة ورجال الدين يرتكز على تصدير الثورة وفق النموذج الإيراني بما يتضمنه من مركزية ولاية الفقيه، واعتلاء نخبة رجال الدين قمة بنية السلطة والحكم في الدولة، فضلاً عن التغلغل المذهبي في الدول الإسلامية لتوسيع قاعدة أتباع المذهب الشيعي، وتأسيس امتدادات للدولة الإيرانية عابرة للحدود على غرار حزب الله اللبناني والحوثيين في اليمن ونظام الأسد في سوريا.

وفي هذا السياق تضمنت الكلمة التاريخية للثورة الإسلامية تليخيصاً للخطط العريضة لهذه الاستراتيجية الإمبريالية التوسعية خاصة قوله "إن العرب حكموا المسلمين، وكذلك الأتراك، وحتى الأكراد، فلماذا لا يحكم الفرس، وهم أعمق تاريخاً وحضارة من كل

وقد اتضحت معالم هذه الاستراتيجية في إشارة محمود أحمددي نجاد الرئيس الإيراني السابق في كلمة له خلال القمة الثانية عشرة للاتحاد الأفريقي في أديس أبابا عام 2009 بقوله "إن أفريقيا قارة تعج بالقيم البشرية والثقافية وقدرات كبيرة في مجالات مختلفة، وفي المقابل تتمتع إيران بقدرات هائلة تمكنها من الدخول في تعاون عملي ومربح مع القارة الأفريقية".

ويرجع الحضور الإيراني الحديث في القارة الأفريقية، إلى بدايات الستينيات من القرن العشرين، وذلك من خلال علاقات ثنائية بين نظام الشاه في إيران والدول الأفريقية، وقد ظلت العلاقة الإيرانية الأفريقية في تلك الفترة دون الطموحات الإمبريالية التوسعية التي عرفتها إيران بعد ذلك في علاقاتها مع أفريقيا تحت قيادة نظام الثورة الإسلامية، ومع انتصار الثورة الإسلامية، أخذت إيران على عاتقها محاولة تصدير نموذج الثورة الإسلامية إلى دول الجوار عبر الاستعمار الثقافي بمؤسسات غايتها التغلغل في الدول النامية على غرار أمانة المجلس الأعلى للثورة الإسلامية.

أولاً: غايات التوسع الإيراني في غرب أفريقيا

إن إيران مثل أي دولة أخرى، تريد تحسين علاقاتها مع دول

باللغات الرسمية والمحلية، وإصدار الصحف والمجلات المحلية، التي تأسست تحت رعاية إيران ودعمها المباشر، والبيت الإذاعي، بامتلاك محطات البث، أو من خلال استئجار ساعات من الإذاعات المحلية، ومنها المشاركات التلفزيونية، والقنوات المرئية بالمناء، التي تبثها المؤسسات التابعة للنظام الإيراني من مختلف أنحاء العالم.

وتمتد السياسة الإعلامية لإيران لتشمل استغلال الإنترنت، وشبكات التواصل الاجتماعي، بقيادة مركز الأبحاث العقائدية بإشراف آية الله السيستاني، إذ يشرف هذا المركز على ما يزيد على مائة موقع على الشبكة الدولية، في ظل وجود آليات لمتابعة متصفح تلك المواقع وتحديد تفضيلاتهم وتسجيلها.

3- إنشاء المؤسسات التعليمية ودعم التعليم العالي:

اعتمدت إيران في توسعها في غرب أفريقيا على هامش التقدم التقني لبعض المؤسسات التعليمية الإيرانية في بعض المجالات المتعلقة بالطاقة والنفط والصحة والزراعة، ومن ثم شرعت في تأسيس جسور تعليمية بينها وبين تلك الدول، وأنشأت مؤسسات تعليمية محلية على أراضيها، وفروعاً من الجامعات الإيرانية، فضلاً عن توفير المنح الدراسية لأبناء غرب أفريقيا إلى مدينة قم والحوزات العلمية ذات القدسية الدينية لدى الشيعة، كما ساهمت إيران بصورة واضحة في دعم التعليم العالي، والبعثات الخارجية من خلال تمويل منح دراسية للتخصصات النادرة لأبناء دول غرب أفريقيا في الجامعات الغربية.

ففي غانا، تولت إيران بناء الجامعة الإسلامية بالكامل، وعقب زيارة رئيس توغو إلى إيران بتاريخ 17 يوليو 2005، تكفلت إيران بالتكاليف الكاملة لأول مبنى خاص بجامعة مدينة كارا، بمبلغ قدره مليون وخمسمائة ألف دولار بواسطة الوكالات الإيرانية المتخصصة في التنمية.

كما شهد التعاون الاقتصادي والعلمي تطوراً ملحوظاً بين السنغال وإيران، حيث تعهدت إيران في أكتوبر من عام 2010 باستثمار 80 مليون دولار في صناعة السيارات، بحيث يتم تأسيس مصنع مشترك تملك شركة إيران خودرو 60% منه والحكومة السنغالية 20% ومستثمرون سنغاليون 20%، كما وافقت إيران على بناء معمل النفط والمواد البتروكيماوية في السنغال منذ أغسطس 2008.

4- المنح الإنسانية وأعمال الإغاثة:

كثفت إيران من الأبعاد الإنسانية والإغاثة في سياستها الخارجية تجاه دول غرب أفريقيا، حيث قامت إيران بدعم الأعمال الخيرية وسد الفراغ الذي تتركه بعض الدول الأخرى، فعقب قيام دولة موريتانيا بطرد السفير الإسرائيلي من نواكشوط، سارعت إيران

هؤلاء؟!". تعكس تلك النصوص مدى تغلغل قيم الاستعمار الثقافي في السياسة الخارجية الإيرانية باعتبارها من الثوابت التأسيسية لنظام الثورة، ومن ثم يمكن اعتبار التمدد الإيراني في غرب أفريقيا بمنزلة أحد تجليات السعي الإيراني في استعادة التاريخ الإمبراطوري للدولة الفارسية، في ظل تماهي الخطوط الفاصلة بين النزعات المذهبية ونظيرتها القومية، في دفع السياسة الإيرانية في اتجاه التوسع العالمي، واختراق الدول النامية.

ثانياً: آليات إيران في دعم وجودها في غرب أفريقيا

تعتمد إيران على عدد من السياسات والأدوات التي تمكنها من تحقيق هدفها في التغلغل بدول القارة الأفريقية، بدءاً بالوسائل الدبلوماسية التقليدية، مروراً بالوسائل التعليمية والمساعدات والمنح الإنسانية، وانتهاءً بالأدوات الإعلامية، وتتمثل تلك الآليات فيما يلي:

1- تعزيز العلاقات الدبلوماسية:

تعدّ الوسائل السياسية، بدءاً بالسفارات الإيرانية في غرب أفريقيا، إلى جانب العلاقات الثنائية والمساعي الدبلوماسية، هي المنصة الصلبة التي تتم إدارة التشيع من خلالها، حيث توجهت إيران بعد الحرب الإيرانية العراقية إلى القارة الأفريقية، في مسعى للإفادة من الرصيد الضخم من الموارد الطبيعية بالقارة. وقد أكد رؤساء إيران أهمية تعزيز العلاقات مع الدول الأفريقية منذ نجاح الثورة بدءاً بالرئيس الأسبق رفسنجاني، خلال زيارة له للسنغال، ومروراً بمحمد خاتمي، أول من اتبع سياسة الانفتاح السياسي الإيراني على العالم، وانتهاءً بأحمدي نجاد الذي زار خلال جولاته الخارجية سبع دول أفريقية، هي نيجيريا والسنغال وسيراليون ومالي وبنين وزيمبابوي وأوغندا، واشترك رؤساء إيران كافة في الإعلاء من أهمية التعاون الثقافي في إطار العلاقات المتبادلة مع الدول الأفريقية.

وإلى جانب الزيارات المتبادلة بين قادة حكومات إيران المتعاقبة وحكومات أفريقية، كانت هناك جهود أخرى تبذلها السفارات الإيرانية بملحقاتها الثقافية، فضلاً عن الأسواق والاستثمارات الاقتصادية التي تساهم بها إيران في تطوير البنية التحتية واقتصادات دول غرب أفريقيا، حيث بلغ حجم صادرات النفط الإيرانية إلى أفريقيا جنوب الصحراء عام 2010 نحو 3,60 مليار دولار، بالمقارنة مع 1,36 مليار دولار عام 2003.

2- الوسائل الإعلامية:

يلعب الإعلام دوراً مركزياً في السياسة الإيرانية الخارجية، فالحضور الإيراني الإعلامي لنشر التشيع في غرب أفريقيا له منصات كثيرة، منها: توزيع الصحف والجراند اليومية والشهرية

وتتصدر نيجيريا دول غرب أفريقيا من حيث أعداد الشيعة، إلا أن السنغال وساحل العاج قد شهدتا تأسيس مراكز أكثر نشاطاً لنشر المذهب الشيعي، وتتبع إيران في هذا الصدد استراتيجية تراعي خصوصية الأوضاع الاجتماعية والثقافية في كل دولة على حدة. ففي غانا أسست إيران مؤسسات جامعية باتت مدخلاً للتغلغل الثقافي استغلالاً لحاجة الدولة في غانا لنشر التعليم الجامعي لدفع التطور التنموي، بينما ركزت إيران في ساحل العاج على التعاون التجاري في ظل وجود مصالح إيرانية في الإفادة من الموارد الطبيعية بتلك الدولة، ومن ثم بلغت واردات إيران من ساحل العاج حوالي 7.9 مليون دولار عام 2009.

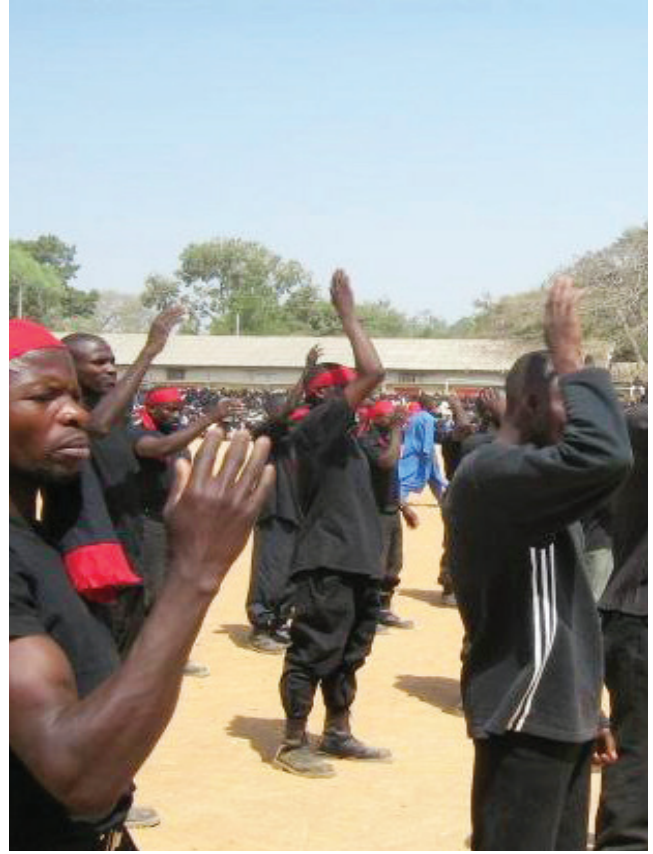
ومن ثم لا يمكن اعتبار نشر المذهب الشيعي الدافع الوحيد لاختراق غرب أفريقيا، إذ إن برجماتية السياسة الخارجية الإيرانية تتصدر الأبعاد الأيديولوجية والدينية الحاكمة لها، ومن ثم تصبح الأولوية في العلاقات مع بعض الدول إيجاد موطئ قدم للشركات الإيرانية للحصول على المواد الخام، وتصدير منتجاتها لأسواق بعيدة عن هيمنة الشركات عالمية النشاط ذات القدرة على المنافسة.

رابعاً: التعامل الأفريقي مع تصاعد التغلغل الإيراني

يكتنف السياسة الخارجية الإيرانية تجاه دول غرب أفريقيا قدر غير محدود من الضبابية والتداخل، مما يربك النخب الحاكمة في تلك الدول، ويجعلها غير قادرة على حسم مسار العلاقات مع إيران، حيث إن تفاوت وتيرة التشيع بين دول غرب أفريقيا، واختلاف السياسات الإيرانية، وإحجام الجاليات الإيرانية عن الاندماج في المجتمعات الأفريقية مثل الشيعة اللبنانيين والسوريين، قد يدفع بعض الدول الأفريقية للتغاضي عن التغلغل الثقافي الإيراني لإفادة من عوائد العلاقات الاقتصادية والعلمية والتنموية.

أما الدعاة المناهضون للتشيع الاثنا عشري في غرب أفريقيا فلا يملك أغلبهم سوى الخطابات العاطفية في ظل بعدهم عن مراكز صنع القرار وافتقارهم للتأثير الجماهيري، في المقابل تتبنى اتجاهات أخرى في الدول الأفريقية رؤية تقوم على اعتبار الخلاف الشيعي السنني ما هو في حقيقته إلا نزاعات قومية عربية فارسية، يسعى فيها كل طرف للتوسع على حساب دول الجوار، ومن ثم يرون أن مصالح الدول الأفريقية تتطلب اتباع سياسة برجماتية تقوم على الإفادة من الأطراف المتصارعة كافة بأقل تكلفة ومن دون الانحياز لأي طرف.

وفي ظل الفراغ الذي خلفه انسحاب بعض الدول العربية السننية من شؤون القارة الأفريقية، واتجاهها للانكفاء على الذات تحت وطأة تفاقم القضايا الداخلية، والافتقار لأدوار بديلة تتصدى للتغلغل الإيراني، فمن المرجح أن تتمكن إيران من تثبيت دعائم وجودها في غرب أفريقيا، استغلالاً لامتلاكها القدرة على دعم جهود التنمية والتحديث في دول الإقليم، ووجود جاليات شيعية بها يعزز من قدرة إيران على اختراق المجتمعات الأفريقية، وتركيز إيران على التعليم والثقافة والإعلام في إطار علاقاتها مع دول غرب أفريقيا ومحاولة إيجاد رصيد من القوة الناعمة يدعم استراتيجيتها التوسعية عبر القارة الأفريقية.



احتفالية لبعض النيجيريين المتشيعين في مناسبة عاشوراء

إلى سد الفراغ الناجم عن تجميد علاقات موريتانيا مع إسرائيل، وقامت باستكمال بناء مستشفى كان يبنى بتمويل من الحكومة الإسرائيلية، واللجنة اليهودية الأمريكية.

ويلاحظ في هذا الصدد انتقائية إيران في سياساتها الإغائية والتنموية، إذ تستهدف دول غرب أفريقيا المسلمة التي تعاني من تعثر اقتصاداتها، وتحتاج للدعم في المجالات التي حققت فيها إيران قدراً من التقدم، مثل مجال بناء السدود وإنتاج القمح والسكر، وتصنيع الإسمنت، والأجهزة والمعدات الطبية، وتجميع العربات والجرارات.

ثالثاً: واقع أنشطة التشيع في غرب أفريقيا

تكشف مراجعة صعود أنشطة التشيع في غرب أفريقيا مدى التغلغل الثقافي لإيران في تلك الدول واختراقها للمجتمعات، خاصة في دول نيجيريا والسنغال وساحل العاج، وفي هذا الصدد تؤدي الجالية العربية الشيعية الموجودة في غرب أفريقيا دوراً داعماً لتعزيز المد الشيعي في دول غرب أفريقيا، حيث يوجد عدد كبير من اللبنانيين الشيعة يعملون بالتجارة في غرب أفريقيا، وقد استغلت إيران جهودهم في نشر التشيع بين المسلمين في تلك الدول، ويستدل على ذلك الدور بما أورده عبدالمعزم الزين، أحد الدعاة اللبنانيين الشيعة في غرب أفريقيا من تأكيدات حول سعيه لاستقطاب الشباب للانضمام لمدارس المذهب الشيعي في السنغال ولبنان وجامعة قم.